



## قتلوا قاداتهم وفرسانهم وأعطوهم درسًا في الكرامة

### "ذي قار" ..

# اليوم الذي اتحدت فيه العرب وأذاقوا العنجهية الفارسية مرارة الهزيمة

بُلي العرب منذ فجر التاريخ بجوار الفرس حتى يومنا الحالي، وللعرب صولات وجولات ضدهم منذ القدم، ورغم دخول الفرس الإسلام إلا أن أنفسهم انطوت على الحق والكره والعنصرية المتوارثة لكل ما هو عربي، خاصة بعد تحطيم الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه آخر معاقلهم السياسية بعد معركة القادسية (636م)، التي أصبحت تشكل في العقل الفارسي الجمعي (الشعوبي) مصدرًا من مصادر الكره ضد العرب.

وإضافة إلى القادسية؛ فإن للفرس تراكمات تاريخية قبل دخولهم الإسلام مع العرب، فمعركة ذي قار الشهيرة في زمن الجاهلية كانت إحدى أهم المعارك بين العرب والفرس، ومن المعلوم في التاريخ قبل الإسلام أن ممالك وقبائل عربية قد دانت بالولاء السياسي للفرس، ولعل أبرزها مملكة الحيرة التي كان أول ملوكها مالك بن فهم الأبرش، وابنه جذيمة الأبرش، ثم عمرو بن عدي، وأيضًا النعمان الذي بنى قصر الخورنق والسدير، وابنه المنذر وثم النعمان بن المنذر، وهو آخر الملوك من قبيلة لخم.

كانت من أهم أسباب معركة ذي قار الشهيرة في تاريخ العرب قبل الإسلام أن كسرى الفرس طالب بتركة النعمان بن المنذر، فأخبره إياس بن قبيصة بأنها وديعة عند قبيلة بكر بن وائل، فأمره كسرى بضمها إليه، فأرسل إياس إلى هانئ بن مسعود الشيباني يأمره برد ودائع النعمان من أموال ودروع وكل ما يخصه حتى نسائه، وعددها كما ذكر الإخباريون ثمانمائة درع وقيل سبعة آلاف، فامتنع هانئ بن مسعود وأبى أن يُسلم ما استودعه عليه النعمان بن المنذر، فغضب كسرى أربوريز وهدد باستئصال بكر بن وائل، فنصح النعمان بن زرعة التغلبي، وكان يكره بكر بن وائل ويسعى لهلاكهم لما كان بينهم من أيام حرب البسوس، بأن يمهّل بكرًا حتى الصيف فيهرعوا إلى ماء لهم يقال له "ذو قار"، فيتساقطون تساقط الفراش في النار، فيأخذهم كسرى، فلما قاطت بكر بن وائل، ونزل بهم الحر الشديد، ونزلت الحنو وهو حنو ذي قار، أرسل إليهم كسرى النعمان بن زرعة يخيرهم بين ثلاث: إما الاستسلام لكسرى ليفعل بهم ما يراه، أو الرحيل أو الحرب.

وأمام تلك الخيارات المحجفة الظالمة في حق بكر بن وائل، ناصح حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي قومه بكر بالقتال وحرب الفرس؛ لأنهم إذا استسلموا قتلوا وسبيت ذراريهم ونسأؤهم، وإذا ارتحلوا قتلوا عطشًا وتلقاهم أعداؤهم فأهلكوهم، وعند ذلك أرسل كسرى إليهم جيشًا من الفرس على رأسه الهامز التستسري المرزبان الأعظم لكسرى، وكان يقود ألف فارس من العجم، وجلابزين صاحب مسلة بارق في ألف فارس، وخرج إياس بن قبيصة على الشهباء والدوسر، وهما كتبتان جعلهما ملوك الفرس قوة عسكرية تابعة للمناذرة: رجال الشهباء من الفرس ورجال الدوسر من العرب التنوخيين على الأخص، ومعه خالد بن يزيد البهراني في قبيلتي بهراء وإباد، والنعمان بن زرعة التغلبي في تغلب، والنمر بن قاسط وقيس بن مسعود بن قيس ذي الجدين، وعامل كسرى وهو أحد ولاته على سفوان.

أمر كسرى أن يقود تلك الجيوش إياس بن قبيصة وتجتمع تحت لوائه، فلما أقيمت جيوش الفرس تسلل قيس بن مسعود ذي الجدين إلى معسكر هانئ بن مسعود، ونصح به بأن يوزع على قبيلته أسلحة النعمان يتسلحون بها ثم يردونها إليه، فاستجاب لنصيحته وقتبم الدروع والسلاح على ذوي القوة والجلد من قومه، فلما قربت حشود إياس بن قبيصة الطائي، خاف هانئ الهزيمة إذ لا طاقة لهم بجيوش كسرى ومن انضم معه من العرب.

وعز على حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي أن يفر العرب أمام الفرس وجيوشهم، ووقف قائمًا أمام هانئ وقال: "إنما أردت نجاتنا فلم تزد على أن ألقينا في الهلكة"، فردّ الناس، وقطع أوصال الهوادج حتى لا تستطيع بكر أن تسوق نساءهم إذا هربوا فبدأ بقطع هودج امرأته، ثم أكمل كي يستحيل على النساء الفرار على النوق إذا فرّ الرجال، وصاح: ألا فليعلم كل منكم أنه إذا حلّى مكانه فقد أشلم حليلته للسبي، فقاتلوا في مدى ما بين الظفر أو الموت، وإنه لمدى ضيق، وبادروا العدو بالشدة فذلك أوقع، ثم ضرب على نفسه قبة "خيمة" ببطحاء ذي قار، وآلى على نفسه ألا يتراجع.

وزحف جيش كسرى يحمل أمتن العناد وأوفره، وقد نهض هانئ بن مسعود الشيباني وقد قنع بضرورة القتال، فأرسل كلمات فيها هدوء الحكمة قائلاً: إن الحذر لا يدفع القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدثية. بعدها تعالت أصوات النساء في الحصى على البأس والبلاء، فصاحت امرأة عجلية:

إن تهزّموا نعانقُ ونفرش النمارق  
أو تهزّموا نفارق فرّاق غير وامق

تراجع قبيلة إباد عن دعم  
الفرس في ذي قار،  
وحميتهم قلبت موازين  
المعركة لصالح العرب

ولما دنا جيش الفرس بالأفيال، خرج أحد الفرس يتحدّى العرب للبراز، فلم يلبث طويلًا حتى انبرى له فارس عربي طعنه فدفق صلبه، فاغتاز الهامز وخرج بنفسه يدعو إلى البراز، فانبى له فارس عربي هو الحوفزان، فألقاه صريعًا، وؤدم جيش الفرس، فمضى من مضى من الناس، ورجع أكثرهم، واستقوا ماءً لنصف شهر، فأنتهم الفرس، فقاتلتهم بالحنو، حتى جزع الفرس من العطش وهربوا، حتى تبعهم العرب وقتلواهم. وحين ازداد عطش الفرس، ذهبوا إلى بطحاء ذي قار، وبعض العرب الذين كانوا مع الفرس هزّم الحنين إلى قومهم، فعزموا الانضمام إلى بني جلدتهم، وهم قبيلة إباد، وكانوا مع الجيش الفارسي. وكان الإباديون أصحاب بأسٍ أذاقوا الفرس كثيرًا من الهزائم، وقبل أن ينضم الإباديون إلى الفرس باعتبارهم جنودًا مرتزقة، بعثوا إلى البكريين يقولون: أيّ أحبّ إليكم، أن نلحق بكم الساعة أم أن نتنظر اشتداد المعركة فننتقل إلى جانبكم؟ فأجابهم البكريون: بل أحبّ إلينا أن تنتقلوا في غمار المعركة، فإنه أشدّ ضعضةً ودهشةً للعدو.

وحين التحم الفريقان؛ لحق بنو إباد ببني بكر في عنفوان المعركة، ولم يستطع الفرس أن يجاروا العرب فذاقوا أول هزيمة أنزلها بهم العرب، وكان ذلك حافزًا أيقظ ثقة القبائل العربية بأنفسهم وجرّاهم على مواجهة الفرس فكان يوم ذي قار مفاجأة للفرس، كما كان مفاجأة للعرب بأنفسهم.

ويذكر الطبري في رواية من رواياته عن ذي قار: "أن الناس تآمروا (أي طلبوا أن يكون أحدهم عليهم أميرًا) فولوا أمرهم حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي، وكانوا يَتَمَيّنون به، فقال لهم: لا أرى إلا القتال، فتيقنوا أمره، وهو الذي تولى إدارة القتال، فكان له شأن كبير فيه، وقد قاد قومه من "بني عجل" في ذلك القتال، فله النصيب الأكبر منه".

وقد احتل حنظلة مكانة هانئ بن قبيصة بن هانئ بن مسعود، رئيس بكر في القتال الذي جرى في ذي قار في موضع الجب (البئر)، وكان هانئ يشعل القلوب أثناء الهجوم على الفرس يوم الجب في ذي قار، وكان على ميمنته يزيد بن مسهر الشيباني، وحنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي على ميسرته يحميه من أي هجوم جانبي يقع عليه من الميسرة.

أما يزيد الشكوتي حليف لبني شيبان، قد كمن مع قومه من بني شيبان في مكان من ذي قار، فلما جاء إياس بن قبيصة مع الفرس إلى هذا المكان، خرج مع كمينه، فباغت إياساً ومن معه، وولّت إباد منهزمة، فساعد بذلك كثيرًا في هزيمة الفرس.

وقد ذهب بعض الإخباريين إلى أن الحرب الرئيسية دارت على بني شيبان، ورئيس الحرب هو هانئ بن مسعود، أما حنظلة فكان صاحب الرأي، ولكن الذي يظهر من دراسة مختلف الروايات أن شأن حنظلة في القتال كان أهم وأعظم من شأن هانئ فيه، حتى ذكرت بعض الروايات أنه هو الذي ولي أمر القتال بعد هانئ، وأن القوم صيروا الأمر إليه بعد هانئ في معركة "جب ذي قار" وأنه هو الذي قتل "جلابزين"، وأن كتيبته "كتيبة عجل" قامت بأمر عظيم في هذه المعركة إلى أن انتهت بهزيمة الفرس.

استولت بكر بن وائل عند إياس ابن قبيصة على سواد العجم، وغنموا أموالهم، فتهدات النساء المسك في صحاف الذهب والفضة، وكانت تلك المعركة انتصارًا كبيرًا للعرب، دارت فيها الدائرة على كسرى وقومه، وقد تبارى الشعراء العرب في تخليد ذكرى الانتصار العظيم بقصائد شاهدة على أن العرب إذا اتحدوا فعلوا الأعاجيب.

1) جرجي زيدان: فتاة غسان (القاهرة: مؤسسة هنداوي، 2012).

2) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 2ط (بغداد: جامعة بغداد، 1993).

3) عبد الوهاب عزام، الصلات بين العرب والفرس وآدابهما في الجاهلية والإسلام (القاهرة: مؤسسة هنداوي، 2012).

4) محمد الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة: مطابع دار المعارف، 1968).

5) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب في عصر الجاهلية (بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د.ت).